خامساً: إضاءات حول الكتب

١- أهمِّيَّةُ الكِتابِ:

قال: أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنى سَرْجُ سابحٍ   وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابُ

يقولُ: (إنَّ سرجَ الفَرَسِ، هو أعزُّ مكانٍ؛ لأنَّه يُمتطَى لطلبِ المعالي، أو محارَبةِ الأعداءِ؛ لدفْعِ شرِّهِم؛ أو للهربِ من الضَّيْمِ؛ واحتمالِ الذُّلِّ، وأنَّ الكتابَ هو خيرُ جليسٍ؛ لأنَّهُ مأمونُ الجانبِ؛ فلا أذىً ولا شَرٌّ؛ ولا يَحتاجُ في مجالَستِهِ إلى مؤُونةٍ؛ فضلاً أنه يُفادُ من آدابِهِ وكلِّ ما يحتويه)[١].

الكتابُ: (هو النَّديمُ الكريمُ، والخِدْنُ الأمينُ، البريءُ مِنَ الذُّنوبِ، السَّليمُ من العيوبِ، الَّذي إنْ أدْنَيْتَه لَمْ يُباعدْك، وإنْ أقصَيْتَه لَمْ يُعاوِدْك، وإنْ واصلتَه حَمِدْتَه، وإنْ هاجرْتَه أمِنْتَه، وإنْ اسْتنطَقْتَه أسْمَعَك، وإنِ استَكْفيتَه أقْنَعَك، وإنِ اسْتَكفَفْتَه كَفَّ، وإنِ اسْتَثْقَلْتَه خَفَّ، وإنْ دَعَوْتَه لَبَّاك، وإنِ استَعفَيْتَه أعْفاكَ، لا يَعصِي لكَ أمْراً، ولا يُحَمِّلُكَ إصْراً، عِرْضُك معَهُ وافِرٌ، وهو لِسرِّك غيرُ ناشِرٍ، أنيقُ المنظرِ، طيِّبُ المَخبَرِ، جميلُ المشَاهِدِ، كثيرُ المَحامدِ، يملأُ العيونَ قُرَّةً، والنفوسَ مَسرَّةً، يُضحِكُ الحزينَ اللَّهِفَ، ويُلْهِي الغَضْبانَ الأَسِفَ، يَجتلِبُ السُّرورَ، ويَشرحُ الصُّدورَ، يَطرُدُ الهمومَ والأحزانَ، وينفِي بواعِثَ الأَشْجانِ، مُجاوَرَتُه أحسنُ مجاوَرَةٍ،

---

(١) (شرح ديوان المتنبي، للبرقوقي) (١/٣١٩).

ومُسَامَرَتُه أحلَى مسامَرَةٍ، ومُجالَسَتُه أنفعُ مجالَسَةٍ، ومُؤانَسَتُه أمتعُ مُؤانَسَةٍ، فيه مَدْعاةٌ إلى الطربِ، ومَسْلاةٌ مِن الوَصَبِ، وتَعِلَّةٌ لِذِي الغَرامِ، وتَلْهِيَــةٌ لقَلْبِ المُسْتَهَامِ، وأُنْسٌ للمستوحِشِ، ورِيٌّ للمتعطِّشِ، وعِمارَةٌ للمجالِسِ، وحِلْيَةٌ للمُؤانسِ، تُلقِي القلوبُ محبَّتَها عليهِ، وتَميلُ النفوسُ بكليَّتِها إليــهِ، ليسَ بينَهُ وبينَ حبَّاتِ القلوبِ حِجابٌ، ولا يُغلَقُ بينَهُ وبينَ سُــوَيْدَاواتِها بابٌ)[1].

قالَ الخطيبَ البغداديُّ: (ومعَ ما فِي الكتبِ منَ المنافعِ العميمــةِ، والمفاخرِ العظيمةِ، فهيَ أكرمُ مالٍ، وأَنْفَسُ جمالٍ، والكتابُ آمَنُ جليسٍ، وأَسَرُّ أنيسٍ، وأَسْلَمُ نديمٍ، وأفصحُ كليمٍ)[2].

وقدْ أوردَ الخطيبُ بإسنادِهِ عنْ سعيدَ بنِ جبيرٍ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما في تفسيرِ قولِ اللهِ تعــالى: ﴿وَكَــانَ تَحْتَــهُ كَــنزٌ لَّهُمَــا﴾ [الكهف:٨٢]، قال: (ما كانَ ذلكَ ذهباً ولا فضةً)، قال: (صحفاً علماً)، وعلَّق الحسنُ بنُ صالحٍ على ذلكَ، فقالَ: (وأيُّ كنزٍ أفضلُ منَ العلمِ؟)[3].

(قالتِ الحكماءُ: الكتابُ نِعْمَ الجليسُ والذُّخْرُ، إنْ شــئتَ أَلْهَتْــك بوادرُه، وأَضحَكَتْك نوادرُه، وإنْ شئتَ أَشْجَتْكَ مَواعِظُــه، وإنْ شــئتَ تعجَّبتَ منْ غرائبِ فوائدِه، وهو يجمعُ لكَ الأوَّلَ والآخِــرَ، والنــاقصَ والوافرَ، والغائبَ والحاضرَ، والشَّكلَ وخِلافَه، والجنسَ وضِدَّه، وهو ميِّتٌ

---

(١) (مطالع البدور، للغزولي) (٢/١٧٥،١٧٦).

(٢) (تقييد العلم، للخطيب، بتصرف) (ص٢٩٩).

(٣) (المصدر السابق بتصرف) (ص٢٩٣).

يَنْطِقُ عَنِ الموْتَى، ويُتَرْجِمُ عنِ الأحياءِ، وهو مُؤْنِسٌ يَنْشَطُ بنشاطِك، ويَنامُ بنومِك، ولا يَنطقُ إلاَّ بما تَهْوَى)[١].

الكتابُ: (معَ خِفَّةِ نَقْلِه، وصِغَرِ حَجمِه؛ صامتٌ ما أسْكَتَّه، وبليغٌ ما استَنْطَقْتَه، ومَنْ لكَ بمسامرٍ لا يَبْتديك في حالِ شُغْلِك، ويدعُوك في أوقاتِ نشاطِك، ولا يُحْوِجُك إلى التجمُّلِ له، والتذَمُّمِ منهُ، ومَنْ لكَ بزائرٍ إنْ شئتَ جعلَ زيارتَهُ غِبًّا، ووُرُودُه خَمْساً، وإنَ شئت لَزِمَك لُزومَ ظلِّكَ، وكانَ منكَ مكانَ بعضِكَ)[٢].

وقالَ الجاحظُ: (وِراثَةُ الكتبِ الشَّريفةِ، والأبوابِ الرَّفيعةِ، مَنْبَهَةٌ للمُورِّثِ، وكنزٌ عندَ الوارثِ، إلا أنَّه كنزٌ لا تجِبُ فيهِ الزكاةُ، ولا حَقُّ السُّلطانِ، وإذا كانتِ الكنوزُ جامدةً، يُنْقِصُها ما أُخِذَ منها، كانَ ذلكَ الكنزُ مانعاً يَزيدُه ما أُخِذَ منه؛ ولا يَزالُ بها المُورِّثُ مذكوراً في الحكماءِ، ومُنوَّهاً باسمِه في الأسماءِ، وإماماً متبوعاً، وعَلَماً منصُوباً، فلا يزالُ الوارثُ محفوظاً، ومِنْ أجلِه محبوباً ممنوعاً، ولا تزالُ تلكُ المحبةُ ناميةً، ما كانتْ تلكَ الفوائدُ قائمةً؛ ولنْ تزالَ فوائدُها موجودةً، ما كانتِ الدَّارُ دارَ حاجةٍ، ولنْ يزالَ مِن تعظيمِها في القلوبِ أثرٌ، ما كانَ مِنْ فوائدِها على الناسِ أثرٌ)[٣].

وقالَ الشيخُ حاتمٌ العَوْنِيُّ: (أمَّا طالبُ العلمِ الَّذي يقولُ: يُغْنِيني

---

(١) (الحيوان، للجاحظ، بتصرف) (١/٣٨ - ٤٠).

(٢) (المصدر السابق) (١/٥٠).

(٣) (الحيوان، للجاحظ) (١/١٠٠).

كتابٌ عن كتابٍ، فليسَ بطالبِ علمٍ! ولا يريدُ أن يكونَ طالبَ علمٍ، فإنَّهُ لا يُغني كتابٌ عن كتابٍ قطُّ، بلْ: لا تُغني طبعةٌ عن طبعةٍ أخرَى له!

وطالبُ العلمِ الَّذي يقولُ: لا أشتريْ كتاباً، حتَّ أقرأَ وأدرسَ الكتابَ الَّذي عندي، فلا يُفلِحُ في العلمِ أبداً! فإنَّ شراءَ الكتبِ وحدَه عبادةٌ يُؤْجَرُ عليها فاعِلُها، لوُجوهٍ، منها: أنَّها ممَّا لا ينقطعُ العملُ بهِ بعدَ الموتِ، حيثُ تبقَى فيُنْتَفَعُ بها مِنْ بعدِهِ.

ثمَّ إنَّ تكوينَ المكتبةِ العامرةِ يُشبهُ طلبَ العلمِ من جهتينِ: الأولَى: كما أنَّ طلبَ العلمِ لا يكونُ جملةً في أيامٍ وليالٍ، كذلكَ تكوينُ المكتبةِ، لا يمكنُ أنْ يَتِمَّ إلاَّ من خلالِ مُتابعةٍ للجديدِ من الكتبِ في عالمِ المطبوعاتِ ؛ حيثُ إنَّ الكتبَ كثيرةٌ جدًّا، وهناكَ كتبٌ نادرةٌ، وكتبٌ سُرعانَ ما تَنْفَدُ من الأسواقِ، فمَنْ لمْ يُبادِرْ بشرائِها فاتَتْه.

الثانيةُ: أنَّ طلبَ العلمِ يُلجئُ طالبَ العلمِ إلى دراسةِ مسائلَ ما كانَ يظُنُّ قبلَ ذلكَ أنَّه سيحتاجُ دراستَها، وكذلكَ تكوينُ المكتبةِ؛ فإنَّ شراءَكَ الكتابَ ومعرفتَك لما فيهِ يدلُّك على كتابٍ آخرَ، رُبَّما لمْ تسمَعْ به، ورُبَّما سمِعتَ به، ولم تظنَّ أنَّكَ محتاجٌ إليهِ؛ فالحاجةُ للكتبِ تنمو مع نموِّ طلبِك للعلمِ)[1].

---

(١) (نصائح منهجية، لحاتم العوني، بتصرف) (ص٧٤،٧٣).

٢- عِشْقٌ عجيبٌ للكتبِ:

(بِيْعَتْ كتبُ ابنِ الجَوَاليقِيِّ في بغدادَ، فحَضَرَها الحافظُ أبو العلاءِ الهَمَدانيُّ، فنادَوْا على قطعةٍ منها: ستينَ ديناراً، فاشتراها الحافظُ أبو العلاءِ بستينَ ديناراً، والإنظارُ من يومِ الخميسِ إلى يومِ الخميسِ. فخرجَ الحافظُ، واستقبلَ طريقَ همدانَ، فوصلَ، فنادَى على دارٍ له، فبلغَتْ ستينَ ديناراً. فقالَ: بيعُوا. قالُوا: تبلغُ أكثرَ مِن ذلكَ. قالَ: بيعُوا. فباعُوا الدارَ بستينَ ديناراً فقبضَها، ثمَّ رجعَ إلى بغدادَ. فدخلَها يومَ الخميسِ، فوفَّى ثمنَ الكتبِ. و لمْ يشعُرْ أحدٌ بحالِه إلاَّ بعدَ مدَّةٍ)[١].

(وكانَ لأبي الحسنِ الفَاليِّ، الأديبِ اللغويِّ، نسخةٌ في غايةِ الجودةِ من كتابِ (الجمهرةِ) لابنِ دُريدٍ، دعَتْه الحاجةُ إلى بيعِها، فاشتَراها الشريفُ المرتضَى بستينَ ديناراً، فلمَّا تصفَّحَها، وجدَ بها أبياتاً بخطِّ بائعِها:

أنِسْتُ بها عشرينَ حولاً وبِعتُها ... لقدْ طالَ وَجْدِي بعدَها وحنِيني
وما كانَ ظنِّي أنَّني سأبيعُها ... ولو خلَّدتْني في السجونِ دُيُوني
ولكنْ لضعفٍ وافتقارٍ وصِبْيَةٍ ... صغارٍ عليهمْ تستهلُّ شؤُوني
فقلتُ و لمْ أملكْ سوابقَ عَبْرَةٍ ... مقالةَ مكويِّ الفؤادِ حزينِ
وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ ... كرائمَ مِنْ ربٍّ بِهِنَّ ضَنِينِ

فردَّ الشريفُ الكتابَ عليه، ووهَبه المالَ)[٢].

---

(١) (ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب) (٣٢٨/١).

(٢) (وفيات الأعيان، لابن خلكان، بتصرف) (٣١٦/٣).

وهذا (المستنصرُ باللهِ الأُمَويُّ، صاحبُ الأندلسِ، كانَ محبًّا للعلمِ والعلماءِ، جمعَ مِن الكتبِ ما لا يُحدُّ ولا يُوصفُ كثرةً ونفاسةً، معَ العلمِ والنباهةِ.

وكانَ يَسْتَجْلِبُ المصنَّفاتِ من الأقاليمِ والنَّواحي، باذِلاً فيها ما أمكنَ مِن الأموالِ، حتَّى ضاقَتْ عنْها خزائِنُه، وكانَ ذا غرامٍ بها، قدْ آثَرَ ذلكَ على لَذَّاتِ الملوكِ)[١].

قالَ ابنُ الأبَّارِ: (وقَلَّ ما نجِدُ لهُ كتاباً من خِزانَتِه، إلا ولَه فيه قراءةٌ، أو نظرٌ في أيِّ فنٍّ كانَ، ويكتُبُ فيه نسبَ المؤلِّفِ، ومولدَه، ووفاتَه، ويأتي مِن ذلكَ بغرائبَ لا تكادُ توجَدُ إلاَّ عندَه؛ لعنايتِهِ بهذا الشَّأنِ)[٢].

و(كانَ أبو محمدٍ، عبدُاللهِ بنُ أحمدَ بنِ الخشابِ النحويُّ، لهُ كتبٌ كثيرةٌ إلى الغايةِ ما لا يَدخلُ تحتَ الحصرِ، ومن خطوطِ الفضلاءِ، وأجزاءِ الحديثِ شيئاً كثيراً.

وقدْ ذكرَ ابنُ النجَّارِ، أنَّه لَمْ يمُتْ أحدٌ من أهلِ العلمِ، وأصحابِ الحديثِ إلا وكانَ يشتري كتبَه كلَّها، فحصلتْ أصولُ المشايخِ عندَه.
وكانَ لا يَخْلو كُمُّه من كتبِ العلمِ، وكانَ يُدِيمُ القراءةَ من غيرِ فُتُورٍ)[٣].

---

(١) (تاريخ الإسلام، للذهبي، بتصرف) (٢٦/٣٥٨ – ٣٥٩).

(٢) (مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي) (ص٢٣٢).

(٣) (ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب) (١/٣١٧، ٣١٩،٣٢٠).

و(فارقَ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ عبدِالرَّحمنِ الخزرجيِّ الدُّنيا، ولمْ تكنْ همتُه مصروفةً، إلا إلى العلمِ وأسبابهِ، اقْتَنى مِن الكتبِ جملةً وافرةً، سوَى ما نَسَخَ بخطِّه الرَّائقِ، وامْتُحِنَ فيها مرَّاتٍ بضروبٍ منَ الجوائحِ، كالغرقِ، والنَّهبِ، بغَرْناطةَ، فقدْ كانَ استَصْحَبَ إليها من مَرَّاكُشَ خمسةَ أحمالٍ، ولمَّا فصلَ عنها تركَها معَ ما صارَ له منها مدَّةَ مُقامِه بها، فأتَى عليهِ النَّهبُ في الكائِنَةِ على أهلِ غَرناطةَ، وفرَّ معظَمُ الناسِ عن منازِلهم، فكانَ ممَّن فرَّ عن منزِله عيالُ أبي العبَّاسِ هذا، وبعضُ ولدِه الذين تركَهم بها حينَ توجَّه إلى مَرَّاكُشَ، فنُهِبَ ما كانَ بدارِه من كتبٍ وغيرِها)(١).

قالَ الحضرميُّ: (أقمتُ مرةً بقرطبةَ، ولازمتُ سوقَ كتبِها مدةً، أترقبُ فيها وقوعَ كتابٍ كانَ لي بطلبِهِ اعتناءٌ، إلى أن وقعَ وهو بخطٍّ جيِّدٍ، وتسفيرٍ [تجليدٍ] مليحٍ، ففَرِحتُ بهِ أشدَّ الفرحِ، فجعلتُ أزيدُ في ثمنِهِ، فيرجِعُ إليَّ المنادي بالزِّيادةِ عليَّ، إلى أن بلغَ فوقَ حدِّهِ، فقلتُ له: يا هذا، أرِني مَنْ يَزيدُ في هذا الكتابِ، حتَّى بلغَهُ إلى ما لا يُساوِي. قالَ: فأراني شخصاً عليهِ لباسُ رياسةٍ، فدنَوْتُ مِنه، وقلتُ لَهُ: أعزَّ اللهُ سيِّدَنا الفقيهَ، إنْ كانَ لكَ غرضٌ في هذا الكتابِ تركتُهُ لكَ، فقدْ بلغَتْ بهِ الزيادةُ بينَنا فوقَ حدِّهِ.

قالَ: فقالَ لي: لستُ بفقيهٍ، ولا أدري ما فيهِ، ولكنِّي أقمتُ خزانةَ كتبٍ، واحتفلتُ فيها؛ لأتجمَّلَ بها بينَ أعيانِ البلدِ، وبقِيَ فيها موضعٌ يَسَعُ هذا الكتابَ، فلمَّا رأيتُه حَسَنَ الخطِّ جيِّدَ التَّجليدِ استحسنْتُه،

---

(١) (الذيل والتكملة، للمراكشي، بتصرف) (١/٢٢٩).

ولْمْ أبالِ بما أزيدُ فيهِ، والحمدُ للهِ على ما أنعمَ بهِ منَ الرِّزقِ، فهُو كثيرٌ)(١).

علَّق الشيخُ عبدُالكريمِ الخُضَير بقولِهِ:

(إذا وصلَ جمعُ الكتبِ والعنايةُ بها إلى هذا الحدِّ، صارتْ ممَّا يُلْهِي ويُشْغِلُ، فيَدْخُلُ دُخولاً أوَّليّاً في قولِهِ تعالى ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾[التكاثر: ١] لأنّهُ مجرَّدُ تكاثُرٍ)(٢).

وقالَ الحافظُ زكيُّ الدينِ عبدُالعظيمِ: (كانَ السِّلَفيُّ مُغْرىً بجمعِ الكتبِ، والاستكثارِ منها، وما كانَ يصلُ إليهِ من المالِ يُخرِجُه في شرائِها. وكانَ عندَه خزائنُ كتبٍ، ولا يتفرَّغُ للنَّظرِ فيها، فلمَّا ماتَ وجدُوا معظمَ الكُتُبِ في الخزائنِ قدْ عَفِنَتْ، والتصقَ بعضُها في بعضٍ؛ لنداوةِ الإسكندريةِ، وكانُوا يستخلصونَها بالفأسِ فتلِفَ أكثرُها)(٣).

قالَ عبدُاللهِ بنُ الإمامِ أحمدَ: (نزَلْنا بمكةَ داراً، وكانَ فيها شيخٌ يُكنىَ بأبي بكرِ بنِ سماعةَ – وكانَ مِن أهلِ مكةَ – قالَ: نزلَ علينا أبو عبدِاللهِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ حنبلٍ في هذهِ الدارِ، وأنا غلامٌ، فقالَتْ لي أُمِّي: الزَمْ هذا الرجلَ فاخْدُمْهُ؛ فإنَّهُ رجلٌ صالحٌ. فكنتُ أخدمُه، وكانَ يخرُجُ يطلبُ الحديثَ، فسُرِقَ متاعُه، وقِماشُه، فجاءَ يوماً، فقالتْ لهُ أُمِّي: دخلَ عليكَ السُّرَّاقُ، فسرقُوا قِمَاشَكَ. فقالَ: ما فَعَلَتِ الألواحُ؟ فقالَتْ له أُمِّي:

---

(١) (نفح الطيب، للمقري) (٤٦٣/١).

(٢) (محاضرة كيف يبني طالب العلم مكتبته).

(٣) (تاريخ الإسلام) (٢٠٤/٤٠ – ٢٠٥).

في الطَّاقِ. وما سألَ عن شيءٍ غيرِها)(١).

قالَ ابنُ الجهمِ: (إذا استحسنْتُ الكتابَ، واستجَدْتُه، ورجوتُ منهُ الفائدةَ، ورأيتُ ذلكَ فيهِ، فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ، أنظرُ كمْ بقِيَ مِن ورقِهِ؛ مخافةَ استنفادِهِ، وانقطاعِ المادَّةِ من قِبَلِه، وإن كانَ المصحفُ عظيمَ الحجمِ كثيرَ الورقِ، كثيرَ العددِ، فقدْ تمَّ عيشِي، وكملَ سُرُورِي.
وذكرَ العتبيُّ كتاباً لبعضِ القدماءِ فقالَ: لولا طولُه وكثرةُ ورقِه لَنسَخْتُه.
فقالَ ابنُ الجهمِ: لكنِّي ما رغَّبني فيهِ إلاَّ الَّذي زهَّدَك فيهِ؛ وما قرأتُ قطُّ كتاباً كبيراً، فأخْلاني مِن فائدةٍ، وما أُحْصِي كمْ قرأتُ مِن صغارِ الكتبِ، فخرجتُ منها كما دخلتُ)(٢).

قالَ المقَّريُّ في وصفِ قرطبةَ:

(وهي أكثرُ بلادِ الأندلسِ، كتباً وأشدُّ الناسِ اعتناءً بخزائنِ الكتبِ، صارَ ذلكَ عندهُم مِن آلاتِ التعيُّنِ، والرئاسةِ، حتَّى إنَّ الرَّئيسَ منهم الَّذي لا تكونُ عندَهُ معرفةٌ، يحتفِلُ في أن تكونَ في بيتِهِ خِزانةُ كتبٍ، وينتخبُ فيها ليسَ إلا لأنْ يُقالَ: فلانٌ عندَهُ خِزانةُ كتبٍ، والكتابُ الفُلانيُّ ليسَ هو عندَ أحدٍ غيرُه، والكتابُ الذي هو بخطِّ فلانٍ، قدْ حصَّلَه وظَفرَ بهِ)(٣).

---

(١) (حلية الأولياء، لأبي نعيم) (١٧٩/٩).
(٢) (المحاسن والمساوئ، لإبراهيم البيهقي) (١٣/١).
(٣) (نفح الطيب، للمقري) (٤٦٢/١).

وعن محمدِ بنِ سليمانَ الجوهريِّ قالَ: (كنَّا نصحبُ الجاحظَ على سائرِ أحوالِهِ، مِنْ جِدٍّ، وَهَزلٍ، قالَ: فخرجْنَا يوماً لنزهةٍ، فبيْنا نحنُ على بابِ جامعِ البصرةِ، ننتظرُ شيئاً أردناهُ، إذْ عارَضَتْنا امرأةٌ، معَهَا أوراقٌ مقطَّعةٌ، فعرَضَتْ ذلكَ عليْنا، فلمْ نجِدْ فيها طائلاً، فتركناها وانصرَفْنا، وتخلَّف معها الجاحظُ، ونحنُ ننتظرُه، فأطالَ، ثمَّ رأيناهُ قد وَزَنَ لها شيئاً، وأخذَ الأوراقَ؛ وقالَ: انتظروني. ومضَى بها إلى منزلِهِ، فلمَّا عادَ أخذْنَا نهزأُ به، ونقولُ: فُزْتَ بقطعةٍ منَ العلمِ وافرةٍ. وضَحِكْنا، فقالَ: أنتم حَمْقَى، واللهِ إنَّ فيها ما لا يوجَدُ إلاَّ فيها، ولكنَّكم جُهَّالٌ لا تعرِفُونَ النَّفيسَ مِن الخسيسِ)(١).

و(كانَ - أيْ أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ عبدِالرحمنِ القَصْريُّ- فقيهاً، صالحاً، ورعاً، سريعَ الدمعةِ، لهُ عنايةٌ بالعلمِ ، والرِّواياتِ، وتصحيحِ الكتبِ، وجمعِها، وكانَ يقولُ: لي أربعونَ سنةً ما جَفَّ لي قلمٌ - يعني من كثرةِ ما يَنسخُ بالليلِ والنهارِ- وكانَ رُبَّما باعَ بعضَ ثيابِه، واشترَى بثمنه كتاباً، أو رُقُوقاً، لنسخِ الكتبِ!

قالَ أبو بكرٍ المالكيُّ: ووصلَ إلى مدينةِ سوسةَ برَسْمِ زيارةِ يحيى بنِ عمرَ، فوجَده ألَّفَ كتاباً، فلمْ يجِدْ ما يشتري بهِ رقًّا يكتبُه فيهِ، فباعَ قميصَه الذي كانَ عليه! واشترَى بثمنِهِ رُقُوقاً، وكتبَ الكتابَ وقابلَه، وأتَى بهِ معه إلى القيروانِ)(٢).

---

(١) (تقييد العلم، للخطيب البغدادي) (ص١٣٨).

(٢) (صفحات من صبر العلماء، لأبي غدة) (ص١٩٣،١٩٤).

قال ياقوتُ الحمويُّ عن الحسنِ بنِ حَمْدُونَ: (كانَ مِنَ المحبينَ للكتبِ، واقتنائِها، والمبالغينَ في تحصيلِها، وشرائِها، وحصلَ لهُ من أصولها المُتْقنَةِ، وأمَّهاتِها المعينةِ، ما لم يحصُلْ لأحدٍ، وكانَ مع اغتباطِه بالكتبِ ومنافستِه، ومناقشتِه فيها، جواداً بإعارتِها، ولقدْ قالَ لي يوماً، وقدْ عَجبْتُ من مسارَعَتِهِ إلى إعارتِها للطلبةِ: ما بَخِلْتُ بإعارةِ كتاب قطُّ، ولا أخذتُ عليهِ رهناً، ولا أعلمُ أنَّه مع ذلكَ فَقَدَ كتاباً في عاريةٍ قطُّ، فقلتُ: الأعمالُ بالنياتِ، وخُلُوصُ نيَّتِكَ في إعارتِها للهِ، حفظَها عليكَ)[1].

قالَ الشيخُ بكريٌّ الكاتبُ في ترجمتِهِ للشيخِ أحمدَ بنِ قاسمٍ الشهيرِ بالحجَّارِ: (وبلغتْ قيمةُ مكتبتِه بعدَ موتِهِ، أربعينَ ألفاً، معَ أنَّها بيعَتْ بغيرِ أثمانِها! وكانَ رحمهُ اللهُ يحبُّ اقتناءَ الكتبِ، حتَّى سمِعنا أنَّهُ رأى كتاباً يُبَاعُ، ولم يكنْ معَهُ دَراهِمَ، وكانَ عليهِ ثيابٌ، فنَزَعَ بعضَها وباعَه واشترَى الكتابَ في الحالِ)[2].

قالَ أبو هفانَ: (لمْ أرَ قطُّ ولا سمِعتُ مَنْ أحبَّ الكتبَ والعلومَ أكثرَ مِنْ ثلاثةٍ: الجاحظِ، والفتحِ بنِ خاقانَ، وإسماعيلَ بنِ إسحاقَ القاضي، فأمَّا الجاحظُ فإنَّه كانَ إذا وقعَ في يدِه كتابٌ قرأَهُ من أوَّلِه إلى آخرِه، أيُّ كتابٍ كانَ، حتَّى إنَّه كانَ يَكْتَرِي دكاكينَ الورَّاقينَ، ويبيتُ فيها للنَّظرِ.

وأمَّا إسماعيلُ بنُ إسحاقَ القاضي، فإنِّي ما دخلتُ عليهِ قطُّ إلاَّ

---

(١) (معجم الأدباء، لياقوت الحموي، بتصرف) (٣/١٠١٣).

(٢) (صفحات من صبر العلماء، لأبي غدة) (ص٢٧٨).

رأيتُه وفي يدِهِ كتابٌ ينظرُ فيهِ، أو يُقلِّبُ الكتُبَ؛ لطلبِ كتابٍ ينظرُ فيهِ، أو ينفضُ الكتبَ)[(١)].

في ترجمةِ العلامةِ النَّحويِّ، أحمدَ بنِ يحيى، المعروفِ بثعلب، أنَّ (سببَ وفاتِهِ؛ أنهُ خرجَ من الجامعِ يومَ الجُمُعةِ بعدَ العصرِ، وكانَ قدْ لحقَه صَمَمٌ لا يَسْمَعُ إلاَّ بعدَ تعبٍ، وكانَ في يدِهِ كتابٌ ينظُرُ فيهِ في الطريقِ، فصدمتْه فرسٌ، فألقتْهُ في هُوَّةٍ، فأُخْرِجَ منها وهو كالمختلِطِ، فحُمِلَ إلى منزلِهِ على تلكَ الحالِ، وهو يتأوَّهُ مِن رأسِهِ، فماتَ ثانيَ يومٍ)[(٢)].

قالَ الشيخُ محمد جمال الدينِ القاسميُّ:

(صادفَ ليلةَ أُهدِيَ إليَّ كتابٌ وكنتُ في صداعٍ، وقدْ عقدَ آلي حَوْلي الاجتماعَ، وأنا أُقَاسي مِنَ الآلامِ، ما يمنعُني مِن الكلامِ، فلمَّا ناولَنيه شقيقي بعدَ العِشاءِ رأيْتُني وقدْ سرَى إليَّ نسيمُ النشاطِ والشفاءِ، فغالبتُ نفسي، ونبَّهتُ لمطالعتِهِ قلبي وحسِّي، وقلتُ: لأَتأسَّيَنَّ بشيخِ الإسلامِ الأنصاريِّ؛ فقدْ كانَ يستشفي بمطالعةِ العلمِ ومذاكرةِ أُولي الفطنةِ والفهمِ، وبقيتُ أُسامِرُه معظمَ اللَّيلِ، وهو يَرِقُّ لي، ويُنيلُني مِن مُنادمتِهِ أعظمَ النَّيْلِ، وقدْ أصبحتُ بحمدِ اللهِ وما بي أَلمٌ)[(٣)].

❖ مِنَ الذين عُنُوا بجمعِ الكتبِ:

- (القاضي الفاضلُ الكاتبُ المشهورُ ، وكان عندَهُ منَ الكتبِ ما

---

(١) (تاريخ الإسلام، للذهبي) (١٨/٣٧٥).

(٢) (وفيات الأعيان، لابن خلكان) (١/١٠٤).

(٣) (الرسائل المتبادلة، للعجمي، بتصرف) (ص١٢٠،١٢١).

يملأُ البيوتَ حتَّى كانَ عندهُ مِنْ (صحاحِ الجوهريِّ) ستَّ عشرةَ نسخةً.

- الوزيرُ القفطيُّ، اشْتهرَ بحبِّه للكتبِ، وكَلَفِه بجمعِها، ووصفَه عصريُّه ياقوتُ الحمويُّ، بأنَّه جمَّاعةٌ للكتبِ، حريصٌ عليها.

- الصاحبُ بنُ عبادٍ، وكانَ يملكُ هو والقاضي الفاضلُ من كُبْرَياتِ خزائنِ الكتبِ القديمةِ، فقدْ تجاوزَ عددُ كتبِ كلٍّ منهما (١٠٠٠٠٠) مجلدٍ.

- أبو مطرفٍ القاضي بقرطبةَ، جمعَ مِن الكتبِ ما لَمْ يجمَعْه أحدٌ مِن أهلِ عصرِهِ في الأندلسِ، وكانَ عندَه ستَّةُ ورَّاقينَ، ينسَخُونَ له باستمرارٍ[(١)].

٣- شراءُ الكتبِ:

(علَى الإنسانِ أنْ يكونَ متوسِّطاً في أمورِهِ كلِّها، فما يحتاجُه مِن الكتبِ يَقْتنيه، وما ينفعُه عندَ المراجعةِ يقتنيه، أمَّا أن يجمعَ كلَّ كتابٍ يسمعُ عنهُ يحتاجُه، أو لا يحتاجُه؛ ليُقالَ: إنَّ عندَهُ مِن كلِّ كتابٍ نسخة فهذِهِ مصيبةٌ!

إنَّ الفائدةَ مِن جمعِ الكتبِ تحصيلُ العلمِ الشرعيِّ، والعلمُ الشرعيُّ مِن أمورِ الأخرَى المحضةِ، الَّتي لا يجوزُ التشريكُ فيها، فإذا دخلَتِ النَّوايا مثل أنْ يُقالَ: إنَّ عندَ فلانٍ مكتبةً، أو عندَه أكبرُ مكتبةٍ خاصَّةٍ، فهذِهِ حقيقةٌ مُرَّةٌ، وقَدْحٌ ظاهرٌ في الإخلاصِ، وإنْ وُجِدَتْ عندَ بعضِ المتعلِّمينَ،

---

(١) من محاضرة (كيف يبني طالب العلم مكتبته، للخضير، بتصرف).

نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافيةَ)(١).

قالَ الخطيبُ: (ينبغي لطالبِ العلمِ أنْ يعتنيَ بتحصيلِ الكتبِ المُحتاجِ إليها ما أمكنَه شراءٌ، وإلاَّ فإجارةٌ أو عاريةٌ، ولا يجعلُ تحصيلَها، وكثرتَها حظَّه مِن العلمِ، وجمعَها نصيبَه مِن الفهمِ، كما يفعلُه كثيرٌ مِن المتحلِينَ للفقهِ والحديثِ.

وقدْ أحسنَ القائلُ:

إذا لَمْ تكُنْ حافظاً واعياً ... فجمعُكَ للكُتْبِ لا ينفعُ

وينبغي للمستعيرِ أنْ يشكرَ للمُعِيرِ، ويَجزيَه خيراً، ولا يُطيلَ مُقامَ الكتابِ عندَهُ مِن غيرِ حاجةٍ، ولا يُحَشِّيَه، ولا يكتُبَ شيئاً فيهِ، إلاَّ إذا علِمَ رضا صاحبِه، ولا يُعيرَ غيرَه، ولا يُودِعَه لغيرِ ضرورةٍ، ولا يَنْسَخَ منهُ بغيرِ إذنِ صاحبِه)(٢).

وقالَ الجاحظُ: (الإنسانُ لا يعلمُ حتَّى يكثُرَ سماعُه، ولابدَّ مِن أنْ تكونَ كتبُه أكثرَ مِن سماعِه، ولا يعلمُ، ولا يجمعُ العلمَ، ولا يُختَلفُ إليه، حتَّى يكونَ الإنفاقُ عليهِ مِن مالِهِ، ألذَّ عندَهُ مِن الإنفاقِ مِن مالِ عدوِّهِ، ومَنْ لَمْ تكُنْ نفقتُه الَّتي تَخْرُجُ في الكتبِ ألذَّ عندَهُ من إنفاقِ عُشَّاقِ القِيانِ، والمستهترينَ بالبنيانِ، لَمْ يبلُغْ في العلمِ مبلغاً رضيًّا، وليسَ ينتفِعُ بإنفاقِه، حتَّى يُؤْثِرَ اتخاذَ الكتبِ إيثارَ الأعرابيِّ فرسَه باللَّبنِ على عيالِه،

(١) من محاضرة (كيف يبني طالب العلم مكتبته، للخضير).

(٢) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، بتصرف).(ص١٦٩،١٦٨،١٦٤).

وحتَّى يُؤمِّلَ في العلمِ ما يُؤمِّلُ الأعرابيُّ في فرسِه)(١).

وقالَ الخطيبُ: (اشترَى رجلٌ كتاباً، فقِيلَ لهُ: اشتريتَ ما ليسَ مِنْ علمِكَ، فقالَ: اشتريتُ ما ليسَ من عِلْمِي، ليصيرَ مِن علمِي.

وقيلَ لآخرَ: ألاَ تشتري كتباً تكونُ عندَك؟! فقالَ: ما يَمنعُني مِن ذلكَ إلاَّ أنِّي لا أعلمُ، فقيلَ: إنَّما يشتريها مَنْ لا يعلمُ، حتَّى يعلمَ.

وكانَ آخرُ يشتري كلَّ كتابٍ يراهُ، فقيلَ له: إنَّكَ لَتَشْتَري ما لا تحتاجُ إليهِ. فقالَ: رُبَّما احتجْتُ إلى ما لا أحتاجُ إليهِ.

وكانَ بعضُ القضاةِ يشتري الكتبَ بالدَّيْنِ والقرضِ، فقيلَ لهُ في ذلكَ، فقالَ: أفلا أشْتَرِي شيئاً، بلغَ بي هذا المبلغَ ؟ قيلَ: فإنَّكَ تُكثِرُ؛ فقالَ: على قَدْرِ الصِّناعةِ، تكونُ الآلةُ)(٢).

❖ حولَ اختيارِ الطَّبعاتِ:

قالَ الدكتورُ محمود الطناحيُّ: (واجبٌ على طالبِ العلمِ أنْ يعرفَ فرقَ ما بينَ الطبعاتِ، فإنَّ كثيراً من كتبِ التُّراثِ، قدْ طُبِعَ مرتين أوْ أكثرَ، وتتفاوتُ هذه الطبعاتُ فيما بينَها كمالاً ونقصاً، وصحةً وسقماً، ولا بدَّ أنْ يكونَ رجوعُ الطالبِ إلى الطبعةِ المستوفيةِ لشرائطِ الصحةِ والقبولِ وهذه الشَّرائطُ ظاهرةٌ لائحةٌ لمن يتأمَّلها، وتتمثلُ في التقديمِ للكتابِ، وبيانِ وزنه العلميِّ، وفهرستِه فهرسةً فنيَّةً تتكشفُ عن كنوزه

(١) (الحيوان، للجاحظ) (١/٥٥).

(٢) (تقييد العلم، للخطيب البغدادي) (ص١٣٧).

وخَباياه، والعنايةِ بضبطِه الضبطَ الصحيحَ، والتعليقِ عليه بما يُضيئه، ويَربطُه بما قبلَهُ وبما بعدَهُ، في غيرِ سَرَفٍ ولا شَططٍ، ثمَّ في الإخراجِ الطِّباعيِّ المتمثِّلِ في جودةِ الوَرَقِ، ونَصاعَةِ الحرفِ الطِّباعِيِّ...)[(١)].

٤- مصطلحاتٌ متعلقةٌ بعناوينِ الكتبِ:

اهتمَّ كثيرٌ من العلماءِ بتدوينِ أسماءِ مشايخِهم، أو مسموعاتِهم، أو إجازاتِهم، وقدْ أُلِّفَتْ في ذلكَ كتبٌ تحملُ أسماءً مختلفةً معَ تشابُهِ مضامينها:

(**المَشْيَخَةُ**) وهيَ الكتبُ الَّتي يذكُرُ فيها المؤلِّفُ الشيوخَ الَّذينَ لقيَهم، وأخذَ عنهم، أو أجازوهُ وإن لمْ يلْقَهُم.

(**المعاجمُ**) الكتبُ التي يُترجِمُ فيها المؤلِّفُ شيوخَهُ مرتَّبينَ على حروفِ المعجمِ، وقدْ يَذكُرُ ما رواهُ عنهم.

(**الثَّبَتُ**) بفتحِ الباءِ، هو الَّذي يجمعُ فيهِ المؤلِّفُ أسماءَ مؤلَّفاتِهِ، أو الَّذي يجمعُ فيهِ مرويَّاتِه، ومشايخَه.

هذا من الناحيةِ النظريةِ، أمَّا عمليًّا فربما جمعَ الكتابُ، أكثرَ من نوعٍ، وسُمِّيَ بأحدِها فقطْ.

(**الفهرسُ**) هو الَّذي يجمعُ فيه المؤلِّفُ مروياتِه المُجازَ فيها مِن الشيوخِ.

(**البرنامجُ**) هي التي يذكُرُ فيها المؤلِّفُ أسماءَ مرويَّاتِه، وأسانيدَ كتبِه المسموعةِ.

---

(١) (الموجز في تراجم البلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، للطناحي) (ص٢٢).

قالَ الكتَّانيُّ: (اعلمْ أنَّهُ بعدَ التتبُّعِ والتروِّي ظهرَ أنَّ الأوائلَ كانُوا يُطْلِقون لفظةَ المَشْيَخَةِ على الجزءِ الَّذي يجمعُ فيهِ المحدِّثُ أسماءَ شيوخِه، ومرويَّاتِهِ عنهم، ثمَّ صارُوا يُطلِقُون عليهِ بعدَ ذلكَ المعجمَ؛ لَمَّا صارُوا يُفرِدُون أسماءَ الشيوخِ، ويرتِّبونَهم على حروفِ المعجمِ، فكَثُرَ استعمالُ وإطلاقُ المعاجمِ مع المَشْيَخاتِ. وأهلُ الأندلسِ يستعملونَ ويُطلِقُونَ البرنامجَ، أمَّا القرونُ الأخيرةُ، فأهلُ المشرقِ يقولونَ إلى الآنَ الثَّبَتَ، وأهلُ المغربِ إلى الآنَ يسمونَه الفهرسةَ)[1].

٥- القراءةُ:

(إنَّ امتلاكَ القدرةِ على التركيزِ، واستحضارِ الفكرِ، امتلاكٌ لِزِمَامِ المادةِ العلميَّةِ، وهي السبيلُ الرئيسُ للوُصولِ إلى الفهمِ، والإتقانِ، ويختلفُ مقدارُ التركيزِ المطلوبِ في القراءةِ حسبَ طبيعةِ الكتابِ المقروءِ، ومستواهُ، وحسبَ مستوى القارئِ الثَّقافيِّ أيضاً، وحسبَ الهدفِ مِن القراءةِ، فمقدارُ التركيزِ الواجبِ لقراءةِ كتابٍ علميٍّ متخصِّصٍ، يختلفُ عن التركيزِ المطلوبِ، لقراءةِ قصَّةٍ أدبيَّةٍ، أو كتابٍ في الثقافةِ العامةِ)[2].

❖ الوصولُ للسُّرعةِ المناسبةِ في القراءةِ:

(إنَّ السُّرعةَ المناسبةَ في القراءةِ تعتمدُ على نوعِ المقْرُوءِ وعلى الغرضِ من القراءةِ فقراءةُ الجرائدِ والموادِّ القصصيَّةِ يمكنُ الإسراعُ فيها أكثرَ مِن الموضوعاتِ العلميَّةِ العميقةِ كأصولِ الفقهِ مثلاً، ثمَّ إنَّ الغرضَ

---

(١) (فهرس الفهارس والأثبات، لعبد الحي الكتاني) (١/٦٧).

(٢) (من آفات القراءة، لأحمد الصويان).

من القراءةِ يُؤثِّرَ في السُّرعةِ، فإذا كانَ المقصودُ من القراءةِ الفهمَ تَطلَّبَ الأمرُ نوعاً من التأنِّي، وإذا كانَ المقصودُ مراجعةَ الحفظِ أو قراءةَ الحدرِ فإنَّ السُّرعةَ تزيدُ (القراءةُ السَّريعةُ قدْ تصلُ إلى ٦٠٠ كلمةٍ في الدَّقيقةِ)، وإذا كانَ المقصودُ التصفُّحَ؛ لتكوينِ فكرةٍ عامَّةٍ عن كتابٍ ليسَ في المقدورِ قراءتُهُ الآنَ، فإنَّ القارئَ سيقرأُ أوَّلَ جملةٍ مِن كُلِّ مقطعٍ أو شيئاً مِن وَسطِ الصفحةِ، وهذا حالُ مَن يَبحثُ عن موضعِ معلومةٍ سَبَقَ قراءتُها، أو يلجأُ إلى القراءةِ الخاطفةِ في كتابٍ ليُقرِّرَ ما إذا كانَ يريدُ شراءَه أمْ لا، ورُبَّما يحتاجُ الأمرُ إلى شيءٍ أسرعَ مِن ذلكَ كمَنْ أرادَ معرفةَ الفكرةِ العامَّةِ للكتابِ، فهو يقرأُ عناوينَ الفصولِ والفهرسَ، وينتقي صفحاتٍ عشوائيًّا للنظرِ فيها، ويمرِّرُ أخرى بتقليبٍ سريعٍ.

وإذا ما أردتَ معرفةَ هلْ سرعتُكَ في القراءةِ مناسبةٌ أم لا فاقرأْ سرًّا لمدةِ خمسِ دقائقَ.. ثمَّ قُمْ بعدِّ الكلماتِ وقِسْمَةِ المجموعِ على خمسةٍ، فإنْ كانَ الناتجُ (١٥٠) كلمةً فأقلَّ فأنتَ بطيءُ القراءةِ، وعليكَ أنْ تسعَى لزيادةِ سرعةِ قراءتِكَ، وفيما يلي اقتراحاتٌ لبعضِ الخبراءِ:

- أنْ تقرأَ خمسَ دقائقَ مثلاً كلَّ يومٍ ولمدَّةِ شهرٍ بأسرعَ ما تطيقُ، تاركاً الانشغالَ بالمعنى مؤقَّتاً.
- توسيعُ نطاقِ النَّظرِ أثناءَ القراءةِ، بإقلالِ زمنِ الوقوفِ على رسمِ الكلمةِ الواحدةِ.
- أن تكونَ القراءةُ صامتةً دونَ تحريكٍ للشَّفتينِ أو رفعُ الصوتِ، معَ عدمِ الرجوعِ للكلمةِ المُبْهَمةِ أو تكرارِها، فمعناها سيتبيَّنُ لكَ غالباً

منَ السِّياقِ والسباقِ.

وفيما يلي بعضُ الأخبارِ المحمِّسَةِ على القراءةِ:

سمعَ الخطيبُ البغداديُّ على إسماعيلَ بنِ أحمدَ الحيريِّ بمكة صحيحَ البخاريِّ في ثلاثةِ مجالسَ: اثنانِ منهما في ليلتينِ، كانَ يبتدئُ بالقراءةِ وقتَ المغربِ، ويَختِمُ عندَ صلاةِ الفجرِ، والثَّالثُ من ضَحْوَةِ النَّهارِ حتَّ طلوعِ الفجرِ. قالَ الذهبيُّ: وهذا شيءٌ لا أعلمُ أحداً في زمانِنا يستطيعُهُ.

وقرَأ ابنُ حجرٍ في إقامتِهِ بدمشقَ- وكانتْ شهرينِ و ثُلُثَ الشَّهرِ- قريباً من مائةِ مجلَّدٍ[١].

❖ أمورٌ تساعدُ على القراءةِ:

(ذكرَ العلماءُ والتربويُّونَ أسباباً كثيرةً تعينُ القارئَ على التَّركيزِ مثلَ: اختيارِ الأوقاتِ المناسبةِ، والأماكنِ الملائمةِ الخاليةِ من الصَّوارفِ، وأن يكونَ خاليَ الذِّهنِ، ولديهِ الاستعدادُ العقليُّ والنَّفسيُّ، الَّذي يُعينُهُ على استجماعِ قُدُراتِهِ الفكريَّةِ.. ونحوِ ذلك ممَّا يطولُ وصفُهُ، ولكنْ يجمعُها وصفٌ واحدٌ وهو: أن يكونَ جادًّا، حريصاً، ذا همَّةٍ صادقةٍ.

فمَنِ امتلكَ هذا الوصفَ حَرَصَ على تذليلِ كافَّةِ العقباتِ الَّتي قدْ تَعْرِضُ لهُ)[٢].

---

(١) (كيف تقرأ كتاباً، للمنجد) (ص ٥٣ – ٥٥).

(٢) (من آفات القراءة، لأحمد الصويان).

❖ آفاتُ القراءةِ:

(الآفةُ الأولى: قلّةُ الصَّبرِ على القراءةِ والمطالعةِ.

الآفةُ الثانيةُ: ضعفُ التَّركيز.

الآفةُ الثالثةُ: ضعفُ المنهجيَّةِ في القراءةِ)[١].

(وكثيرٌ من القرَّاء، لا يَحرِصُ أثناءَ القراءةِ على بناءِ فكرِهِ، وإحياءِ قدراتِهِ العقليةِ، ولا يستحثُّها للنظرِ والتأمُّلِ، وإنَّما يقعُ أسيراً ينتظرُ التَّلقينَ مِن المؤلِّفِ، ويقفُ دائماً موقفَ المتلقِّي، ومثلُ هذا وإن حصَّل كمًّا مِن المعلوماتِ فإنَّهُ ليسَ قارئاً جيِّداً؛ لأنَّه لا يملكُ البصيرةَ؛ ولا القدرةَ على التمييزِ والموازنةِ بينَ اجتهاداتِ العلماءِ، والمفكِّرينَ، فالتفكيرُ هو الَّذي يجعلُ ما نقرؤُه مِلْكاً لنا)[٢].

وقد حكَى ابنُ بدرانَ عن شيخِهِ الشيخِ محمدِ بنِ عثمانَ الحنبليِّ المشهورِ بخطيبِ دوما قالَ: (وكانَ رحمه اللهُ يقولُ لنا: لا ينبغي لمنْ يقرأُ كتاباً أن يتصوَّرَ أنَّهُ يريدُ قراءَتَهُ مرَّةً ثانيةً لأنَّ هذا التصورَ يمنعُه عن فهمِ جميعِ الكتابِ، بل يتصوَّرُ أنَّهُ لا يعودُ إليهِ مرَّةً ثانيةً أبداً)[٣].

٦- مطالعةُ الكتبِ:

قال القاضي عياضٌ: (ذُكِرَ أنَّ صديقاً لأبي عمرَ الإشبيليِّ، شيخِ فقهاءِ الأندلسِ في وقتِهِ، قصدَهُ في عيدٍ؛ زائراً لهُ، فأصابَهُ داخلَ دارِهِ،

---

(١) (المصدر السابق).

(٢) (المصدر السابق).

(٣) (المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل) (١/٢٦٦).

ودربُهُ مفتوحٌ، فجلسَ منتظرَهُ وأبطأَ عليهِ، فأوصى إليهِ فخرجَ، وهو ينظرُ في كتابٍ، فلمْ يشعُرْ بصديقِهِ حتَّى عثَرَ فيهِ؛ لاشتغالِ بالِهِ بالكتابِ، فتنبَّهَ حينئذٍ لهُ، وسلَّمَ عليهِ، واعتذرَ إليهِ من احتباسِه بشغلِه، بمسألةٍ عويصةٍ لمْ يُمكِنْه تركُها حتَّى فتحَها اللهُ عليه، فقالَ له الرَّجلُ: في أيامِ عيدٍ، ووقتِ راحةٍ مسنونةٍ؟

فقالَ: إذا عمِلَت بهذا هذهِ النفسُ الضنة إلى هذه المعرفة، واللهِ ما لي راحةٌ ولا لذَّةٌ في غيرِ النَّظرِ، والقراءةِ)(١).

قالَ السَّخاويُّ في ترجمةِ أحمدَ بنِ سليمانَ البلقاسيِّ: (كـانَ.... محبًّا للعلمِ، والمذاكرةِ، والمباحثةِ، غيرَ مُنْفَكٍّ عن التحصيلِ، بحيثُ إنَّه كانَ يطالعُ في مشيِهِ، ويُقْرِئُ القراءاتِ في حالِ أكلِهِ؛ خوفاً مِن ضياعِ وقتِهِ في غيرِهِ، أعجوبةً في هذا المعنَى، لا أعلمُ في وقتِهِ مَنْ يُوازيهِ فيه)(٢).

وقالَ الفيروزآبادي: (اشتريتُ بخمسينَ ألفَ مثقالٍ ذهباً، كتباً. وكانَ لا يُسافِرُ إلا وصَحِبَتْه منها عدَّةُ أحمالٍ، ويُخْرِجُ أكثرَهـا في كـلِّ منزِلَةٍ، فينظُرُ فيها، ثمَّ يُعيدُها إذا ارتحلَ)(٣).

قالَ الأدفويُّ في ترجمةِ ابنِ دقيقِ العيدِ: (وكانَ لـهُ قـدرةٌ علـى المطالعةِ، رأيتُ خزانةَ المدرسةِ النَّجيبيَّةِ فيها جملةُ كتبٍ، مِن جملتِها: عيونُ

---

(١) (ترتيب المدارك، للقاضي عياض) (٧/١٢٥،١٢٤).

(٢) (الضوء اللامع، للسخاوي) (١/٣١١).

(٣) (الضوء اللامع، للسخاوي) (١٠/٨١).

الأدلةِ لابنِ القصَّارِ، في نحوٍ من ثلاثينَ مجلدةً وعليها علاماتٌ لهُ، وكذلكَ رأيتُ كتبَ المدرسةِ السابقيَّةِ، رأيتُ السُّنَنَ الكبيرَ للبيهقيِّ فيها، في كُلِّ مجلدةٍ علامةٌ، وفيها تاريخُ الخطيبِ، ومعجمُ الطبرانيِّ الكبيرُ، والبسيطُ للواحديِّ وغيرُها، وأخبرني شيخُنا الدندريُّ: أنَّهُ لَمَّا ظهرَ الشرحُ الكبيرُ للرافعيِّ اشتراهُ بألفِ درهمٍ، وصارَ يصلِّي الفرائضَ فقطْ، واشتغلَ بالمطالعةِ إلى أن أنهاه مطالعةً، ويُقالُ: إنَّه طالَعَ كتبَ الفاضليَّةِ عن آخرِها)[(١)].

قالَ أبو عمرَ يوسُفُ بنُ يحيى المغاميُّ: (طرقتُ عبدَالملكِ بنَ حبيبٍ الأندلسيَّ القرطبيَّ يوماً بغَلَسٍ؛ حرصاً على الاقتباسِ منه، واستأذنتُ عليهِ، فأذِنَ لي ودخلتُ، فإذا بهِ جالسٌ في مجلسه، عاكفٌ على الكتبِ، قد أحاطَتْ بهِ ينظُرُ فيها، والشَّمعةُ بينَ يديْهِ تَقِدُ، وطويلةٌ عليهِ — أي: على رأسِهِ قلنسوةٌ طويلةٌ - فسلَّمتُ فردَّ عليَّ وقالَ لي: يا يوسُفُ، أَوَقَدِ انسلخَ الليلُ؟ قلتُ: نعمْ، وقدْ صلَّيْنا، فقامَ إلى صلاةِ الصُّبحِ فصَلاها، ثمَّ رجعَ إلى مَقْعدِه، وقالَ: يا يوسُفُ، ما صلَّيْتُ هذه الصَّلاةَ إلاَّ بوضوءِ العشاءِ الآخرةِ)![(٢)].

قالَ ابنُ حُميدٍ في ترجمةِ عبدِالوهَّابِ بنِ محمَّدٍ التميميِّ الأحسائيِّ: (أكبَّ على تحصيلِ العلمِ، وإدمانِ المطالعةِ، والمراجعةِ، والمذاكرةِ، والمباحثةِ، ليلاً ونهاراً، لمْ تنصرِفْ همَّتُه على غيرِه أصلاً، حتَّى إنَّهُ لَمَّا تزوَّج بأمرِ والدِه وإلزامِه، أخذَ ليلةَ الدُّخولِ معهُ المحفظةَ، فلمَّا انصرفَ عنهُ الناسُ

---

(١) (الطالع السعيد، للأدفوي) (ص٥٨٠).

(٢) (ترتيب المدارك، للقاضي عياض) (١٣٨/٤).

نزَّلَ السِّراجَ، وقعدَ يُطالعُ الدُّروسَ الَّتي يريدُ أن يقرأَها في غدٍ، ويُقدِّرُ في نفسِهِ أنَّهُ بعدَ إتمامِ المطالَعةِ يُباشِرُ أهلَهُ، فاستغرقَ في المطالعــةِ إلى أن أذَّنَ الصُّبحُ، فتوضَّأَ وخرجَ للصَّلاةِ، وحضرَ دروسَ والدِهِ مِن أوَّلِها، ولَمْ يعلمْ والدُه بذلكَ؛ لكونِهِ لا يُبصِرُ، ولَمَّا فَرِغَ مِن الدروسِ، باركَ لهُ الحاضرونَ، وفي اللَّيلةِ الثَّانيةِ، فعلَ كفعلِه بالأمسِ، ولَمْ يقرُبْ أهلَهُ مِن غــيرِ قصــدٍ للتَّركِ، لكنْ لاشتغالِهِ بالمطالعةِ، فيقولُ في نفسِهِ: أطالعُ الدرسَ، ثُمَّ ألتفتُ إلى الأهلِ، فيَستغرِقُ إلى أن يُصبِحَ، فأَخْبَرَتِ المرأةُ وليَّها بذلكَ، فــذهبَ وأخبرَ والدَهُ بالقصَّةِ، فدعاهُ والدُهُ وعاتبَهُ، وأخذَ منهُ المحفظةَ، وأكَّدَ عليهِ بالإقبالِ عليها)[١].

قالَ ابنُ الآبنوسيِّ: (كانَ الحافظُ الخطيبُ يمشي وفي يــدِهِ جــزءٌ يُطالِعُه)[٢].

وفي ترجمةِ أبي داودَ السِّجستانيِّ صاحبِ (السننِ): قالَ ابنُ داسَةَ: (كانَ لأبي داودَ كُمٌّ واسعٌ، وكُمٌّ ضيِّقٌ، فقيلَ لهُ في ذلكَ؟ فقالَ: الواسعُ للكتبِ، والآخَرُ لا يُحتَاجُ إليهِ)[٣].

وذكرَ العسكريُّ، أنَّ أبا بكرٍ الخيَّاطَ - العلاَّمةَ النحويَّ محمدَ بنَ أحمدَ البغداديَّ (ت٣٢٠) - كانَ يدرسُ جميعَ أوقاتِهِ، حتَّى في الطريــقِ، وكانَ ربَّما سقطَ في جرفٍ، أو خبَطَتْهُ دابَّةٌ[١].

---

(١) (السحب الوابلة، لابن حميد، بتصرف) (٦٨٢/٢).

(٢) (سير أعلام النبلاء، للذهبي) (٢٨١/١٨).

(٣) (المصدر السابق) (٢١٧/١٣).

٧- استعارةُ الكتبِ:

قالَ الشيخُ الأديبُ علي الطنطاوي: (ومثلُ هؤلاءِ المقترضينَ الأفاضلُ مستعيرو الكتبِ، أولئكَ الذين تركوا في قلبي غصَصاً، حلفتُ بعدَها بموثقاتِ الأيْمانِ، أنّي لا أعيرُ أحداً كتاباً، و لَمْ أنجُ معَ ذلكَ منهم، و لَمْ يُرَدَّ لي إلى الآن كتابُ (كشفِ الظُّنونِ) الَّذي نسيتُ مَنِ استعارَه منّي منذُ إحدى عشْرَةَ سنةً، ولهؤلاءِ المستعيرينَ نوادرُ، شَهدتُ منها العَجَبَ، منها أنَّ أستاذاً محترماً في قومِهِ جاءني مرَّةً يلتمسُ إعارتَهُ جزءاً مِن (تفسيرِ الخازنِ)، من خزانةِ كتبي؛ ليراجعَ فيهِ مسألةً، ويرُدَّهُ إليَّ عاجلاً، ففعلتُ، وانتظرتُ أربعَ سنواتٍ ثمَّ ذكَّرتُه بهِ، فغضبَ وقالَ: ليش العجلةُ يا أستاذ؟ لم أراجعِ المسألةَ بَعْدُ!

والَّذي يذكُرُ منهم صاحبَ الكتابِ، ويتنازلُ، فيرُدُّهُ إليهِ، يرُدُّهُ مخلوعَ الجلدِ، ممزَّقَ الأوصالِ.

وأنكَى منهُ المستعيرُ، المحقِّقُ، المدقِّقُ، الَّذي يرَى في الكتابِ موْطناً يحتاجُ إلى تعليقٍ، فيكتبُ التعليقةَ التي يفتحُ اللهُ بها عليهِ، على هامشِ كتابِكَ، بالحبرِ الصينيِّ الَّذي لا يُمحَى، ولا يُكشَطُ، ويُذيِّلُها باسمِهِ الكريمِ!!

وشرٌّ مِنْ هؤلاءِ جميعاً، الثقيلُ الَّذي يتظرَّفُ ويتخففُ، فيرى أنَّ مِنَ الظُّرفِ سرقةَ الكتبِ، فإذا زارَكَ وتركتَهُ في المكتبةِ، وخرجتَ؛ لتأتيَهُ

(١) (الحث على طلب العلم) (ص٧٧).

بالقهوةِ والشّاي، أخذَ كتاباً فدسَّهُ تحتَ إبطِهِ، أو وضعَهُ في جيبِهِ، ثمَّ ذهبَ بِهِ، وأنتَ لا تدري)[١].

واشتَهرَ قولُ بعضِهِم:

ألا يا مُسْتعيرَ الكُتْبِ دعني ... فإنَّ إعارتي للكُتْبِ عارُ
فمحبوبي مِن الدُّنيا كتابٌ ... فهلْ أبصرتَ محبوباً يُعارُ؟

قال المُبَرِّدُ: (أتَى الأصمعيَّ رجلٌ فسألهُ أن يكتبَ لهُ شيئاً مِن العلمِ، فكتبهُ لهُ، فلمَّا كانَ بعدَ أيامٍ، عادَ إليهِ، فقالَ: يا أبا سعيدٍ، إنَّ ذلكَ القرطاسَ الّذي كتبتَهُ لي سقطَ منّي، فأكلتْهُ الشاةُ، فأُحِبُّ أن تكتبَ لي غيرَهُ ثانياً.

فكتبَ لهَ:

قلْ لبُغاةِ الآدابِ ما وصلَتْ ... منها إليكُم فلا تُضيعُوها
ضَمِّنُوا علمَها الدفاترَ والحِبْرَ ... بحسنِ الكتابِ أَوْ عُوها
إنِ اشتريتُمُوا يوماً لأهلِكُمُ ... شاةً لَبُوناً فلا تُجيعُوها
فإنْ عَجزتُم ولْم يكنْ عَلَفٌ ... يُشبِعُها عندَكُمُ فبِيعُوها)[٢]

ولمعرفةِ حُكمِ إعارةِ الكتبِ، وبذلِها لمن يحتاجُ إليها، والشروطِ المعتبرَةِ للإعارةِ، وآدابِ الإعارةِ والاستعارةِ، عليكَ بكتابِ (إعارةِ الكتبِ أحكامها وآدابها في الفقهِ الإسلاميِّ)، لصالح محمَّد الرَّشيد، فقدْ ألقى

---

(١) (في سبيل الإصلاح، للطنطاوي) (٩٧،٩٦).

(٢) (تقييد العلم، للخطيب البغدادي) (ص١٤٧).

الضوءَ على هذا الموضوعِ، وكشفَ كثيراً من أحكامِهِ، وآدابِهِ، والكتابُ مفيدٌ في هذا البابِ.

٨- التأدُّبُ معَ الكتبِ:

قالَ ابنُ جماعةَ عن الكتبِ:

(إذا وضعَها على خشبٍ ونحوِهِ، جعلَ فوقَها، أو تحتَها، ما يمنعُ تآكلَ جلودِها بِهِ، ولا يجعلُ الكتَابَ خزانةً للكراريسِ أو غيرِها، ولا مخدَّةً، ولا مِروحةً، ولا مسنداً، ولا مُتَّكَئاً، ولا مقتلةً للبقِّ وغيرِهِ، ولا يطوي حاشيةَ الورقةِ أو زاويتَها، ولا يُعلِّمُ بعودٍ أو شيءٍ جافٍّ، بل بورقةٍ أو نحوِها، وإذا ظفرَ فلا يكبُسُ ظُفرَهُ قويًّا.

ويُراعِي الأدبَ في وضعِ الكتبِ، باعتبارِ علومِها، وشرفِها، وشرفِ مصنِّفِيها، وجلالتِهم، فيضعُ الأشرفَ أعلى الكلِّ، ثمَّ يراعي التَّدريجَ، فإن كانَ فيها المصحفُ الكريمُ، جعلَهُ أعلى الكلِّ، وهكذا)(١).

(رأى بعضُ الحكماءِ رجلاً يبتذلُ كتاباً، فقالَ لهُ: (بيَّنْتَ عن نقصِكَ، وبرْهَنْتَ عن جهلِكَ؛ فما أهانَ أحدٌ كتابَ علمٍ؛ إلاَّ لجهلِهِ بما فيهِ؛ وسوءِ معرفتِهِ بما يَحويهِ.

ورأى آخرُ رجلاً قدْ جلَسَ على كتابٍ، فقالَ: سبحانَ اللهِ، يصونُ ثيابَهُ ولا يصونُ كتابَهُ، لَصَوْنُ الكتابِ أولى من صَوْنِ الثِّيابِ)(٢).

---

(١) (تذكرة السامع، لابن جماعة بتصرف) (ص١٧٠،١٧١).

(٢) (تقييد العلم، للخطيب البغدادي) (ص٣٥٣).